

سورة يوسف عليه السلام

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ومائة ، وللمناسبة بينها وبين سورة هود أنها متممة لما فيها من قصص الرسل والاستدلال بذلك على كون القرآن وحياً من عند الله دالا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، والفرق بين القصص فيها وفيما قبلها ، أن السابق كان قصص الرسل مع أقوامهم فى تبليغ الدعوة والمحااجة فيها وعاقبة من آمن منهم ومن كذبوهم لإنذار مشركى مكة ومن تبعهم من العرب .

وأما هذه السورة فهى قصة نبي ربي فى غير قومه قبل النبوة وهو صغير السن حتى بلغ أشده واكتهل فنبىء وأرسل ودعا إلى دينه ثم تولى إدارة الملك لقطر عظيم فأحسن الإدارة والسياسة فيه وكان خير قدوة للناس فى رسالته وفى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة وتصريف أمورها على أحسن ما يصل إليه العقل البشرى ، ومن أعظم ذلك شأنه مع أبيه وإخوته آل بيت النبوة ، وكان من حكمة الله أن يجمعها فى سورة واحدة ، ومن ثم كانت أطول قصة فى القرآن الكريم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) .

المعنى الجملى

جاءت فاتحة هذه السورة كفاتحة سورة يونس ، خلا أن القرآن وصف هنا بالمبين وهناك بالحكيم ؛ ذلك أن موضوع الأولى قصص نبي تقلبت عليه صروف الزمان بين نحوس وسعود كان فى جميعها خير أسوة ، وموضوع الثانية أصول الدين من توحيد الله

وإثبات الوحي والرسالة والبعث والجزاء ، وهذه يناسبها الوصف بالحكمة .
وروى عن سعد بن أبي وقاص في سبب نزولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
غير يتلو القرآن زمانا على أصحابه فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا فيكون في ذلك
ترويح لنفوسنا وإحاطة بما يتضمنه من عبر وعظات .

الايضاح

(الر) تقدم الكلام في هذا بما فيه الكفاية .
(تلك آيات الكتاب المبين) أى آيات هذه السورة هى آيات الكتاب البين
الظاهر بنفسه ، والمُظهِر لما شاء الله من حقائق الدين وأحكام التشريع وخفايا الملك
والملكوت وأسرار النشأتين والمرشد إلى مصالح الدنيا وسبيل الوصول إلى سعادة الآخرة
(إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) أى إنا أنزلنا هذا الكتاب على النبي
العربي ، ليبين لكم بلغتكم العربية ما لم تكونوا تعلمونه من أحكام الدين وأنباء الرسل
والحكمة وشئون الاجتماع وأصول العمران وأدب السياسة ، لتعقلوا معانيه وتفهموا
ما ترشد إليه من مطالب الرُوح ومدارك العقل وتزكية النفس وإصلاح حال الجماعات
والأفراد بما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم .

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت
من قبله لمن الغافلين) أى نحن نقص عليك ونحدثك أحسن ما يُقَصُّ ويتحدث عنه
موضوعا وقائدة ، لما يتضمنه من العبر والحكم ، بإيجائنا إليك هذه السورة من القرآن
الكريم ، إذ هى الغاية فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس وحسن موضوعها ، وقد كنت
من قبل ذلك فى زمرة الغافلين عنه من قومك الأميين الذين لا يَحْطُرُّ فى بالهم التحديث
بأخبار الأنبياء وأقوامهم وبيان ما كانوا عليه من دين وشرع كيعقوب وأولاده وهم
فى بدارتهم ولا ما كان فيه المصريون الذين جاء يوسف إليهم من حضارة وترف ،

ولما حدث له في بعض بيوتات الطبقة الراقية ، ولاحاله في سياسة الملك وإدارة شئون الدولة وحسن تنظيمها .

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤) قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ
عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٥)
وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ، كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)

تفسير المفردات

لأبيه : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، روى أحمد والبخارى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم ». أحد عشر كوكبا : هم إخوته وكانوا أحد عشر نفرا ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، والسجود : من سجد البعير ، إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس في تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرها الانحناء مبالغة في الخضوع والتعظيم ، وقد استعمله القرآن في انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية للتقرب إلى من يعتقد أن له عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب الممهودة ، وقص الرؤيا : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة ، وكاد له إذا دبر الكيد لأجله لمضرتة أو لمنعمته كما قال « كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ . والاجتباء من جيبت الشيء : إذا حصلت له لنفسك والتأويل : الإخبار بما يؤول إليه الشيء في الوجود ، وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها ، والآل أصلا (٨)

أهل ، وهو خاص بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي صلى الله عليه وسلم وآل الملك .

المعنى الجملى

هذه الآيات الثلاث في قصِّ يوسف رؤياه على أبيه وهو صغير ، وفيما أخابه به أبوه من منعه عن قصه لإخوته خيفة الحسد والكيد له ، وفي تعبير تلك الرؤيا له ، وما فيها من البشارة وحسن العاقبة وأنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس ، وقد شغف أبوه بحبه وتعلق به أمه وكان ذلك بدء الما جدَّله من أحداث ضر و بؤس ، ثم عاقبة حميدة كانت ذكرى للذاكرين وعبرة للمتقين ، ولم يذكر ذلك إلا في أواخر السورة ، وقد احتذى هذا الأسلوب كثير ممن وضعوا كتب القصص (الروايات) فتراهم يبدؤون بذكر نبا هامّ يشغل بال القارىء ويحيره في فهم علله وأسبابه ومايزالون يتدرجون به من حال إلى حال ومن شرح معنّى وكشف خفيّ رويدا رويدا بأناة وحقق حتى يشرحوا ذلك النبأ في نهاية القصص

الايضاح

(إذ قال يوسف لأبيه ياأبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين) أى قال يوسف لأبيه يعقوب إني رأيت فى منامى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر لى سجداً ، وقد علم أبوه أن هذه رؤيا إلهام ، لأضغاث أحلام ، تشيرها فى النوم الهواجس والأفكار ، وأن يوسف سيكون له شأن عظيم وسلطان يسود به أهله حتى أباه وأمه وإخوته ، وخاف أن يسمع إخوته ماسمعه ويفهموا مافهمه ، فيحسدوه ويكيدوا لإهلاكه ، ومن ثم نهاه أن يقص عليهم رؤياه كما دل على ذلك قوله :

(قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) أى لا تخبر

إخوتك بما رأيت في منامك خيفة أن يحسدوك فيحتملوا للإيقاع بك بتدبير يحكمونه بالتفكير والرؤية .

ثم بين السبب النفسى لهذا الكيد بقوله :

(إن الشيطان للإنسان عدو مبين) أى إن الشيطان عدو لآدم وبنيه ، قد أظهر لهم عداوته فاحذر أن يغرى إخوتك بك بحسدهم لك إن أنت قصصت عليهم رؤياك ، إذ من دأبه أن ينزغ بين الناس حين تعرض لهم داعية من هوى النفس ولا سيما الحسد الغريزى فى فطرة البشر ، وقد أرشد إلى هذا يوسف بقوله « مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » .

(وكذلك يجتنبك ربك) أى وكما أراك ربك الكواكب والشمس والقمر سجداً لك ، يجتنبك لنفسه ويصطفيك على آلك وغيرهم بفيض إلهى يكملك به بأنواع من المسكرات بلا سعى منك فتكون من المخلصين من عباده .

(ويعلمك من تأويل الأحاديث) أى ويعلمك من علمه اللدنى تأويل الرؤيا بتعبيرها أى تفسيرها بالعبارة والإخبار بما تثول إليه فى الوجود كما حكى الله قول يوسف لأبيه « هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » .

وتعليم الله تعالى يوسف التأويل : إعطاؤه إلهاماً وكشفاً لما يراد ، أو فراسة خاصة فيها ، أو علماً أعم من ذلك كما يدل عليه قوله لصاحبى السجن « لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأٌ نَكَمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » .

(ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب) أى ويتم نعمته عليك باجتماعه إليك واصطفائك بالنبوة والرسالة ، وعلى أهلك وإخوتك وذريتهم بإخراجهم من البدو وتبؤهم مقاماً كريماً فى مصر ثم فى تسلسل النبوة فى أسباطهم حيناً من الدهر .

(كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) أى كما أتم النعمة من قبل هذا العهد على جدك وجد أهلك ، وقدم إبراهيم لأنه الأشرف منهما والعرب وغيرها تفعل ذلك وقد كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم يابن عبد المطلب

وقد قال يعقوب ذلك لما كان يعلمه من وعد الله لإبراهيم باصطفاء آله وجعل النبوة والكتاب في ذريته ، وما علمه من رؤيا يوسف وأنه الحلقة الأولى في السلسلة النبوية التي ستكون من بعده من أبنائه .

(إن ربك عليم حكيم) أي إن ربك عليم بمن يصطفيه ومن هو أهل للفضل والنعمة فيسخر له الأسباب التي تبلغ به الغاية إلى ما يريد له . حكيم في تدبيره فيعمل ما يشاء جريا على سنن علمه وحكمته .

وخلاصة ما تقدم — إن يعقوب عليه السلام فهم من هذه الرؤيا فهما جليلًا كل ما بشر به ابنه يوسف الرائي لها ، وأما كيد إخوته له إذا قصها عليهم فقد استنبطه من طبع البشر وعداوة الشيطان له ، ثم فقى على ذلك ببشارته بما تدل عليه الرؤيا من اجتهاد ربه ومن تأويل الأحاديث وهو الذي سيكون وسيلة بينه وبين الناس في رفعة قدره وعلو مقامه وإتمام نعمته عليه بالنبوة والرسالة كما كان ذلك لأبويه من قبله .

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ (٧) إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ
وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨)
اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن
بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيَابَةِ
الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)

المعنى الجملى

صدر سبحانه هذا القصص بمقدمتين : أولاهما في وصف القرآن وكونه تنزيلا من عند الله دالاً على رسالة من أنزل عليه وكون النبي صلى الله عليه وسلم كان من قبله

غافلا عما جاء فيه لا يدري منه شيئا . ثانيتهما رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه فهما جميلاً
 وبني عليه تحذيره وإنذاره وما يستهدف له من كيد إخوته ثم تبشيره بحسن العاقبة ،
 ثم بنى على الأولى قوله بعد تمام القصة « ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ » وبنى على الثانية
 قوله لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له « يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ
 جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا » .

الايضاح

(لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) أى لقد كان في قصة يوسف وإخوته
 لأبيه عبرة أيما عبر دالة على قدرة الله وعظيم حكمته وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من
 عباده ، وتربيته لهم ، للسائلين عنها الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها ، فإنهم
 هم الذين يعقلون الآيات ويستفيدون منها .

تأمل: تر أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه فيها
 لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بصادق فراسته وأمانته وصدقه لما آمنه على
 بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم منها لما ظهرت زناهم
 ولو لم تفشل في كيدها وكيد صويحباتها لما أُلقي في السجن ، ولو لم يُسجن ما عرفه ساقى
 ملك مصر وعرف صدقه في تعبير الرؤيا وإرشاد ملك مصر إليه فأمن به وجعله على
 خزان الأرض ، ولو لم يقبوا هذا المنصب ما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهله أجمعين
 من الجوع والخمصة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه فيما ناله من عز وبَدَخ ورخاء عيش
 ونعيم عظيم ، وما من مبدأ من هذه المبادئ إلا كان ظاهره شراً مستطيراً ، ثم انتهى
 إلى عاقبة كانت خيراً وفوزاً مبيناً .

فتلك ضروب من آيات الله في القصة لمن يريد أن يسأل عن أحداثها الحسية
 الظاهرة وعلومها الباطنة كلها يعقوب بتأويل رؤيا يوسف وعلمه بكذبهم في دعوى
 أكل الذئب له ، ومن شمه لريح يوسف منذ فصلت العير من أرض مصر ذاهبة إلى

أرض كنعان ، ومن رؤية برهان ربه ، ومن كيد الله له لياخذ أخاه بشرع الملك ، ومن علمه بأن إلقاء قميصه على أبيه يعيده بصيرا بعد عمى بقى كثيرا من السنين .

(إذ قالوا ليوסף وأخوه أحبّ إلى أئبنا منا ونحن عصبه) أى إن فى شأنهم لعبرة حين قالوا : ليوסף وأخوه شقيقه بنيامين أحب إلى أئبنا منا فهو يفضّلهما علينا بمزيد محبة على صغرهما وقليل نفعهما ، ونحن رجال أشداء أقوياء نقوم بكل ما يحتاج إليه من أسباب الرزق والسكفاية .

(إن أبانا لى ضلال مبين) أى إن أبانا لقد أخطأ فى إيثاره يوسف وأخاه من أمه علينا بالحبية ، وهو قد ضل طريق العدل والمساواة ضلالا بيّنا لا يخفى على أحد ، فكيف يفضّل غلامين ضعيفين لا يقومان له بخدمة نافعة على العصبية أولى القوة والسكسب والحماية عن الذمار .

وفى الآية من العبرة وجوب عناية الوالدين بمدارة الأولاد وتربيتهم على المحبة واتقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم واجتناب تفضيل بعضهم على بعض بما يعده المفضول إهانة له ومحابة لأخيه بالهوى .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) أى قال إخوة يوسف بعضهم لبعض : اقتلوا يوسف حتى لا يكون لأبيه أمل فى لقائه ، أو انبذوه فى أرض بعيدة عن العمران بحيث لا يهتدى إلى العودة إلى أبيه إن هو سلم من الهلاك .

(يخل لكم وجه أئبكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) أى يخل لكم وجه أئبكم من شغله بيوسف فيمكن كل توجهه إليكم وكل إقباله عليكم ، بعد أن تخلوا الديار من يشغله عنكم أو يشارككم فى عطفه وحبه وتكونوا من بعده قوما صالحين تائبين إلى الله مصلحين لأعمالكم بما يكفّر إثمها مع عدم التصدى لئبها ، وبذا يرضى عنكم أبوكم ويرضى عنكم ربكم .

(قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين) الجب : البئر غير المبنية بالحجارة ، وغيابته : ما يغيب عن رؤية البصر

من قعره ، والسيارة جماعة المسافرين الذين يسرون فى الأرض من مكان إلى آخر للتجارة أو غيرها .

أى قال قائل منهم وهو روبين : لا تقتلوا يوسف وأقوه فى قعر البئر حيث يغيب خبره فيلتقطه بعض المسافرين ويأخذوه إلى حيث ساروا فى الأفطار البعيدة ، وبذا يتم لكم ما تريدون ، وهو إبعاده عن أبيه إن كنتم فاعلين ما هو المقصد لكم بالذات ، إذ لا شك أن قتله لا يعينكم لذاته ، فعلام تُسَخِّطُونَ خالقكم باقتراف جريمة القتل والفرص يتم بدونها ؛ وجاء فى سفر التكوين من التوراة أن روبين مكرهم إذ كان يريد إخراجهم من الجب وإرجاعه إلى أبيه فإنهم وضعوه فى بئر لا ماء فيها ، ففرت بها سيارة من تجار العرب مسافرة إلى مصر ، فاقترح عليهم يهوذا إخراجهم وبيعه لهم ، إذ لفائدة لهم من قتله وهو من لحمهم ودمهم ففعلوا .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١)
أَرْسَلْنَاهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي
أَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدَّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ
غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَلْأَنْبِيَاءُ كَذَبُوا ، وَكُنْتُمْ أَصْغَارًا (١٤)

تفسير المفردات

الناصح : المشفق المحب للحير ، والرَّتَعُ : الاتساع فى الملاذ ، والمراد باللعب لعب المسابقة والاتصال بالسهام ونحوها مما يُتَدَرَّبُ به لمقاتلة الأعداء وتعليم فنون الحرب ، والحزن : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكرهه ، والخوف : ألم النفس من توقع مكرهه قبل وقوعه ، والعصبة : الجماعة التى تُعَصَّبُ بها الأمور ، وتكفى بآرائها الخطوب وخاسرون : ضعفاء عاجزون ، أو هالكون لاغناء عندهم ولا نفع .

المعنى الجملى

هذا بيان جىء به لبيان ما كادوا به أباهم بعد أن ائتمروا بيوسف ليرسله معهم ، وفيه إيماء إلى أنه كان يخافهم عليه ، ولولا ذلك ما قال لهم تلك المقالة التى أظهرها فيها أنهم فى غاية المحبة والشفقة له .

الإيضاح

(قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) أى قالوا له : لم نخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به ونخلص النصح له ؟ وكانوا قد شعروا منه بهذا بعد ما كان من رؤيا يوسف ، وربما علموا بهذا منه .

(أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) أى أرسله معنا غداة غد حين نخرج كما دتنا إلى المرعى فى الصحراء يشاركنا فى الرياضة والأنس والسرور وأكل الفواكه والبقول وغيرها مما يطيب ، وقد كان أكثر أمب أهل البادية السباق والصراع والرمى بالعصى والسهام إن وجدت ، وإنا لحافظوه من كل أذى يصيبه .

(قال إني ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) أى قال محببهم : إني ليحزننى ويقض على مضجعى أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء خيفة أن يأكله الذئب وأنتم لا تشعرون به ، لاشتغالكم عن مراقبته وحفظه بلبعكم ، وأمله لولم يذكر هذا لهم لما خطر ببالهم أن يقع ، ولكن شدة الحذر والاحتياط هو الذى جعله يقول ذلك .

(قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) أى قالوا له والله لئن أخطفه منا الذئب فى الصحراء ونحن جماعة شديدة البأس تُكفى بنا الخطوب وتُدفع مهمات الأمور — إنا إذا هالكون ولا غناء عندنا ولا نفع ولا ينبغى أن يُعتدَّ بنا ويركَّن إلينا .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءَ يَسْكَونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا نَاذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١٨)

تفسير المفردات

أجمعوا : أى عزموا عزمًا لا يرد فيه ، وأوحينا إليه : أى ألمناه كما فى قوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى » والعشاء : من الغروب إلى العتمة : أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار ، والاستباق : تكلف السبق فى العدو أو فى الرمي ، والمتاع : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب ، ومؤمن : أى مصدق ، وسولت : زيفت وسهلت ، والصبر الجميل : مالا شكوى فيه إلى الخلق ، على ماتصفون : أى من هذه المصيبة وعظيم الرزء .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات الأربع لبيان ما اعترموا عليه ونفذوه بالفعل وما اعتذروا به لأبيهم من كذب ، وما قابلهم به من تكذيب وصبر واستعانة بالله عز وجل .

الايضاح

(فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) أى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له وقد عزموا عزمًا

إجماعيا لا تردد فيه على إلقائه في غيابة الحب ، نفذوا ذلك وحينئذ أوحينا إليه وحيا إلهاميا تطيبيا لقلبه وتثبيتا لنفسه : لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجا ، ومخرجا حسنا ، وسينصرك الله عليهم ، ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما صنعوا وهم لا يشعرون بأنك يوسف .

وفي هذا إيماء إلى أنه سيخلص من هذه المحنة ويصبرون تحت سلطانه وقهره .

(وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) أى جاءوه وقت العشاء حين خالط سواد الليل بياض النهار - حال كونهم يبكون ليقنعوه بما يريدون قائلين له : إنا ذهبنا من موضع اجتماعنا نتسابق ونتأذى بالقبال ، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأزوادنا ليحفظنا ، إذ لا يستطيع مجاراتنا في استباقنا الذي يرهق القوى فأكله الذئب ، إذ بعدنا عنه ولم نسمع استغاثته ولا صراخه ، ونحن نعلم أنك لاتصدقنا ولو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؟ ولك العذر في هذا الغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في ذلك الأمر .

(وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) أى إنهم جاءوا بقميصه ملطخا ظاهره بدم غير دم يوسف ، وهم يدعون أنه دمه ، ليشهد بصدقهم ، فكان دليلا على كذبهم ، ومن ثم قال : (على قميصه) ليستبين للقارىء والسامع أنه موضوع وضعاً متكلفاً ، إذ لو كان من افتراس الذئب لتمزق القميص ، وتغلغل الدم في كل قطعة منه ، ومن أجل هذا كله لم يصدقهم وقال : هيهات ، ليس الأمر كما تدعون ، بل سهلت لكم أنفسكم الأمارة بالسوء أمرا نكراً وزينته في قلوبكم فطوعته لكم حتى اقترتموه ، وسأصبر صبورا جميلا على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ، وإني أستمع به على أن يكفيني شر ما تصفون من الكذب .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ، قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠)

تفسير المفردات

السيارة: الرفقة تسير معا ، والوارد: الذى يرد الماء ليستقى للقوم ، وأسروه: أى أخفوه من الناس ، والبضاعة: القطعة من المال يفرز للتجار به ، وشرى الشيء: باعه واشتراه: ابتاعه ، والبخس: الناقص والمعيب كما قال «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» والمراد هنا الحرام أو الظلم لأنه بيع حر .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن إخوة يوسف أجمعوا امرهم على إلقائه في غيابة الجب ونفذوا ذلك ، ذكر هنا طريق خلاصه من تلك الحنة بمجيء قافلة من التجار ذاهبة إلى مصر ، فأخرجوه من البئر وباعوه في مصر بثمن بخس .

الإيضاح

(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون) أى وجاءت ذلك المكان قافلة تسير من مدين إلى مصر فأرسلوا واردهم الذى يطلب لهم الماء للاستسقاء فأرسل دلوه ودلاه في ذلك الجب فتعلق به يوسف ، ولما خرج ورآه قال مبشراً جماعته السيارة: يا بشرى هذا غلام أى آن وقت البشرى فاحضرى ، كما يقال يا أسفاً يا حسرتا إذا وقع ما هو سبب لذلك فاستبشرت به السيارة وأخفوه من الناس ، لثلا يدعيه أحد من أهل ذلك المكان لأجل أن يكون بضاعة لهم من جملة تجارتهم ، والله عليم بما يعمله هؤلاء السيارة وما يعمله إخوة يوسف ،

فلكل منهم مقصد خاص في يوسف ، فالسيارة يدعون بالباطل أنه عبد لهم فيتجرون به ، وإخوة يوسف يريدون إخفاءه عن أبيه ويدعون أن الذئب قد أكله ، وذلك كيد بالباطل ، ليمضى فيه وفيهم حكمه السابق في علمه ، وليرى إخوة يوسف ويوسف وأبوه قدرته تعالى على تنفيذ ما أراد .

وفي هذا تذكير من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وآسليه له على كان يلقي من أقرائه وأنسبائه المشركين من الأذى فكأنه يقول له : اصبر على مانالك في الله ، فإنى قادر على تغيير ذلك ، كما قدرت على تغيير ما لقي يوسف من إخوته ، وسيصير أمرك إلى العلو عليهم كما صار أمر يوسف مع إخوته إذ صار سيدهم .

(وشروه بثمان بخرس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين) أى وباعه السيارة في مصر بثمان قليل ناقص عن ثمن مثله من الدراهم القليلة التي تعد عداً ولا توزن وزناً ، وكانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية (أربعين درهماً) فما فوقها ويعدون مادونها ، ومن ثم يعبرون عن القليل بالمعدود ، وفي سفر التكوين من التوراة أن إخوته قرروا بيعه للاسماعيليين أى للعرب ، وقد أخرجه من الجب جماعة من أهل مدين وباعوه لهم ، وكان الذين باعوه من الراغبين عنه الذين يرغبون الخلاص منه ، لثلا يظهر من يطالبهم به لأنه حر ، والتمن لم يكن مقصوداً لهم حين بيعه ومن تم قنعوا بالبخس منه .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأُمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢)

تفسير المفردات

المتوى : مكان الثواء والإقامة ، مكنا ليوسف : أى جئنا له مكانة رفيعة في أرض مصر ، من تأويل الأحاديث : أى بعض تعبير الرؤيا التى عُمدَّهَا رؤيا الملك وصاحبى السجن ، وغالب على أمره . أى لا يُمنع عما يشاء ولا يَنزاع فيما يريد ، وأشدّه : هو رشده وكال قوته باستكمال نموه الجسائى والعقلى حكما أى حكما صحيحا يزن به الأمور بميزان صادق ، وعلما بحقائق الأشياء .

المعنى الجملى

هاتان الآيتان مبدأ قصص يوسف فى بيت العزيز الذى اشتراه ، وفيهما بيان تمكين الله له وتعليمه تأويل الأحاديث وإيتائه حكما وعلما وشهادة من الله له بأنه من زمرة المحسنين .

الايضاح

(وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه) لم يبين الكتاب الكريم اسم الذى اشتراه فى مصر ولا منصَّبه ولا اسم امرأته ، لأن ذلك لا يهيم فى العبرة من القصة ولا يزيد فى العظة ، ولكن لقبه النسوة فيما يأتى (بالعزيز) وهو اللقب الذى لقب به يوسف بعد أن تولى إدارة الملك فى مصر ، والظاهر أنه لقب أكبر وزراء الملك ، وفى سفر التكوين أنه كان رئيس الشرط وحامية الملك ، وناظر السجن ، وأن اسمه فوطيفار وقد تفرس هذا الوزير فيه أصدق الفراسة ، إذ وصَّى امرأته يا كرام مثواه أى بحسن معاملته فى كل شئونه حتى يكون كواحد منهم ولا يكون كالعبيد والخدم .

وإخلاصة ما قال — أحسنى تعهده ، وانظرى فيما يقتضيه إكرام الضيف على أبلغ وجه وأتمه .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامراته (أكرمي مثواه) والمرأة التي قالت لأبيها (ياأبت استأجره) الآية وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

ثم بين علة إكرامه برجائه فيه وعظيم أمله في جليل مساعدته فقال :
(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) أى عله أن ينفعنا في أمورنا الخاصة إذا تدرّب فيها وعرف مواردها ومصادرها أو شئون الدولة العامة لما يلوح عليه من مخايل الذكاء والنجابة ، أو تبنائه وتقييمه مقام الولد فيكون قرة عين لنا ووارثا لنا ومجدنا ، إذا تم رشده ونضج عقله . وفى الآية إيماء إلى شيئين .

(١) إن العزيز كان عقيما .

(٢) إنه كان صادق الفراسة ثاقب الفكر، فقد استدل من كمال خلقه وخلقه على أن حسن عشرته وكرم وفادته وشرف تربيته مما يكمل استعداده الفطرى ، فالتجارب دلت على أنه لا يفسد الأخلاق شىء أكثر مما تفسدها البيئة الفاسدة وسوء القدوة (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى وعلى ذلك النحو من التدبير جعلنا ليوسف مكانة عالية فى أرض مصر كان مبدؤها عطف العزيز عليه ورجاءه فيه ، فوقع له فى بيته ثم فى السجن من الأحداث ما كان سببا فى اتصاله بساقى الملك ثم بالملك نفسه . (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) أى ولنعلمه بعض تعبير الرؤيا ، ومعرفة حقائق

الأمر، بما ينتهى إلى غاية التمكين لدى الملك ، حتى ليقول له : « أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » ويقول له الملك « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ » (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى والله غالب على كل أمر يريد ، فلا يُغلب على شىء منه ، بل يقع كما أراد « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » فما حدث من إخوة يوسف له وما فعله مسترقوه وبتاعوه وما وصّى به الذى اشتراه امرأته من إكرام مثواه ، وما وقع له مع هذه المرأة من الأحداث ومن دخوله السجن - قد كان من الأسباب التى أراد الله تعالى له بها التمكين

فى الأرض ، ولكن أكثر الناس يأخذون الأمور بظواهرها كما زعم إخوة يوسف أنه لو أبعد يوسف عنهم خلا لهم وجه أبيهم وكانوا من بعده قوما صالحين ، وقوله : أكثر الناس ، إيماء إلى أن الأقل يعلمون ذلك كيعقوب عليه السلام ، فإنه يعلم أن الله غالب على أمره ، فهأى ذى أقواله السابقة واللاحقة. صريحة فى ذلك ، ولكن علمه إجمالى لانفصلي ، اذ لا يحيط بما تخبئه الأقدار .

وبعد أن بينَّ سبحانه أن إخوة يوسف أساءوا إليه وصبر على تلك الشدائد حتى مكن الله له فى أرض مصر ، بين هنا أنه آتاه الحكم والعلم حين استكمال سن الشباب وبلوغ الأشد ، وأن ذلك جزاء منه سبحانه على إحسانه فى سيرته فقال عز اسمه :

(ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما) أى ولما بلغ سن رشده وكمال قوته باستكمال نموه البدنى والعقلى ، وهبناه حكما صحيحا فيما يعرض له من مهام الأمور ، ومشكلات الحوادث ، مقرونا بالحق والصواب ، وعلما لدنيا وفكرا بما ينبغى أن تسير عليه الأمور . وقد ر الأطباء هذه السن بـخمس وعشرين سنة ، وقد أثبت علماء الاجتماع أن الاستعداد الإنسانى يظهر رويدا رويدا حتى إذا ما بلغ المرء خمسا وثلاثين سنة وقف عند هذا الحد ولم يظهر فيه شىء جديد غير ما ظهر من بدء سن التمييز إلى هذه السن ولهذا قال ابن عباس إنها ثلاث وثلاثون سنة .

(وكذلك نجزى المحسنين) أى ومثل ذلك الجزاء العظيم نجازى به المتحللين بصفة الإحسان الذين لم يدنسوا أنفسهم بسينات الأعمال ، فنوتهم نصيبا من الحكم بالحق والعدل ، وعلما يظهره القول الفصل ، إذ يكون لذلك الإحسان تأثير فى صفاء عقولهم ، وجودة أفهامهم ، وفقهم لحقائق الأشياء غيرما يستفيدون بالكسب من غيرهم ، ولا يتهميا مثل ذلك للمسيئين فى أعمالهم المتبعين لأهوائهم وطاعة شهواتهم .

وَرَأَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ
 هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ،
 كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤)
 وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ،
 قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥)

تفسير المفردات

راودته على الأمر مراودة : طلبت منه فعله مع المخادعة ، فالمراد يتلطف في طلبه
 تلطف المخادع ويحرص عليه ، وقال الراغب : المرادة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد
 منه غير ما يريد كما قال إخوة يوسف (سنراود عنه أباه) أى نحتال عليه ونخدعه عن
 إرادته ليرسل بنيامين معنا ، وهيت لك بفتح الهاء وكسرهما مع ففتح التاء وضمها أى
 أى هلم أقبل وبادر ، وقد روى أنها لغة عرب حوران ، واختيرت لأنها أخص ما يؤدي
 المراد مع النزاهة الكاملة ، ومعاذ الله : أى أعوذ وأتحصن بالله من أن أكون من
 الجاهلين الفاسقين ، وهمت به : أى همت لتبتطش به لعصيانه أمرها ، وهمّ بها ليقهرها
 في الدفع عما أرادته ويرد عنفها بمثله ، وبرهان ربه : إما النبوة التي تلى الحكم والعلم
 اللذين آتاه الله إياها بمد بلوغ الأشد ، وإما مراقبة الله تعالى ورؤية ربه متجليا له ناظرا
 إليه كما جاء في الحديث في تفسير الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه
 فإنه يراك » والمخلصون : هم الذين اجتباهم الله واختارهم لطاعته ، واستبقا الباب :
 أى تسابقا إلى الباب وقصد كل منهما سبق الآخر إليه ، فهو ليخرج وهي لتمنعه من
 الخروج ، وقدت قميصه من دبر : أى قطعتة طولاً من خلف ، وألفيا : أى وجدا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه وصية العزيز لامراته بإكرام مشواه ، وعلل ذلك بحسن الرجاء فيه ثم بين عنايته سبحانه به وتمهيد سبل كماله بتمكينه فى الأرض - ذكر هنا مراودة امرأته له ونظرها إليه بغير العين التى نظر بها زوجها إليه وأرادت منه غير ما أراه هو وما أراد الله من فوقهما وأعدت العدة لذلك فغلقت الأبواب ؛ فهرب منها إلى باب الخدع فقدت قميصه من خلف ووجدوا زوجها بالباب الخارجى فبادرت إلى اتهامه بالسوء إلى أن استبان براءته .

الإيضاح

(ورأوته التى هو فى بيتها عن نفسه) أى وخادعت امرأة العزيز يوسف عن نفسه ورواغته ، ليريد منها ما تريد هى منه مخالفا لإرادته وإرادة ربه ، والله غالب على أمره ، قال فى السكشاف : كأن المعنى خادعته عن نفسه ، أى فعلت ما يفعل الخداع لصاحبه عن شىء لا يريد إخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه ، وهى عبارة عن التحمل فى مواقعه إياها اه .

(وغلقت الأبواب) أى وأحكمت إغلاق باب الخدع الذى كان فيه وباب البهو الذى يكون أمام الغرف فى بيوت العظاماء وباب الدار الخارجى وربما كان هناك غيرها . (وقالت هيت لك) أى وقالت هلم أقبل ، وزيدت كلمة (لك) لبيان المخاطب كما يقولون : سقيا لك ورعيا لك ، وهذا الأسلوب هو الغاية فى الاحتشام فى التعبير ، وقد يكون هناك مازادته من إغراء وتهيبج مما تقتضيه الحال . وما نقل من الإسرائيليات عنها وعنه من الوقاحة فكذب ، فمثل هذا لا يعلم إلا من الله أو من الرواية الصحيحة عنها أو عنه ، ولا يستطيع أحد أن يدعى ذلك .

(قال معاذ الله) أى أعوذ بالله عز وجل وألتجىء إليه مما تريد منى فهو يعيدنى أن أكون من الجاهلين كما سيأتى من قوله « وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » .

(إنه ربي أحسن مثنوى) أى إنه سيدى المالك لرقبتي ، قد أحسن معاملتي فى إقامتي عندك وأوصاك يا كرام مثنوى ، فلا أجزيه بالإحسان إساءة وأخونه فى أهله ، ثم علل ما صنع بقوله :

(إنه لايفلح الظالمون) أى إنه تعالى لايفلح الظالمين لأنفسهم والظالمين للناس بخيانة وتمدّ على الأعراض لا فى الدنيا ببلوغ الإمامة والرياسة ولا فى الآخرة بالوصول إلى رضوان الله تعالى ودخول جنات النعيم .

وفى هذا إيماء إلى الاعتزاز به ، والأمانة لسيدته ، والتعريض بخيانة امرأته ، واحتقارها بما أضرم نار الغيظ فى صدرها .

(ولقد همت به) أى ولقد همت بأن تبطش به ، إذ عصى أمرها وخالف مرادها وهى سيدته وهو عبدها ، وقد استذلت له بدعوته إلى نفسها بعد أن احتالت عليه بمراودته عن نفسه ، وكلما ألتحت عليه ازداد عتواً واستكباراً ، معتزاً عليها بالديانة والأمانة ، والترفع عن الخيانة ، وحفظ شرف سيده وهو سيدها ، ولا علاج لهذا إلا تذليله بالانتقام ، وهذا ما شرعت فى تنفيذه أو كادت بأن همت بالتنكيل به .

(وهمّ بها) لدفع صياها عنه وقهرها بالبعد عما أرادته .

(لولا أن رأى برهان ربه) أى ولكنه رأى من ربه فى سريرة نفسه ما جعله يمتنع من مصاولتها واللجوء إلى الفرار منها .

وإخلاصة — إن الفارق بين همها وهمه ، أنها أرادت الانتقام منه شفاء لغيظها إذ فشلت فيما تريد ، وأهينت بعتوه واستكباره وإبائه لما أرادت ، وأراد هو الاستعداد للدفاع عن نفسه ، وهمّ بها حين رأى أماراً وثوبها عليه ، فكان موقفهما موقف المواثبة والاستعداد للمضاربة ، ولكنه رأى من برهان ربه وعصمته ما لم ترمثه إذ ألهمه أن الفرار من هذا الموقف هو الخير الذى به تتم حكمته فيما أعده له ، فاستبقا باب الدار وكان من أمرها ما يأتى بيانه فيما بعد ، هذا خلاصة رأى نقله ابن جرير وأيده الفخر الرازى وأبو بكر الباقلانى .

ويرى غيرهم من المفسرين أن المعنى أنها همت بفعل الفاحشة ولم يكن لها معارض ولا مانع ، وهم هو بمثل ذلك ، ولولا أن رأى برهان ربه لا اقترفها .

وقد فنّده بعض العلماء لوجوه :

(١) إن الهم لا يكون الا بفعلٍ للهام ، والوقاع ليس من أفعال المرأة حتى تهتم به ، وإنما نصيبها منه قبوله ممن يطلبه منها بتمكينه منه .

(٢) إن يوسف لم يطلب منها هذا الفعل حتى يسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه لها ، فالآيات قبل هذه وبعدها تبرئه من ذلك بل من وسائله ومقدماته .

(٣) إنه لو وقع ذلك لوجب أن يقال (ولقد هم بها وهمت به) لأن الهم الأول هو المقدم بالطبع وهو الهم الحقيقي والهم الثاني متوقف عليه .

(٤) إنه قد علم من هذه القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ماطلبتة طلبا جازما ومصرة عليه ، فلا يصح أن يقال إنها همت به ، إذ الهم مقارنة الفعل المتردد فيه ، بل الأنسب في معنى الهم هو ما فسرناه به أولا ، وذلك لإرادة تأديبه بالضرب .

وقد رووا هنا أخبارا من الإسرائيليات عن تهتك المرأة وتبذلها مما لا يقع مثله من أوقح الفساق الذين تجردوا من جلايب الحياء فضلا عن ابتلي بالمعصية أول مرة من سليمان الفطرة الذين لم تغلبهم ثورة الشهوة الجاححة على حيائهم الفطري وحيائهم من نظر ربهم إليهم .

(كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) أي جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف عنه دواعي ما أرادت به من السوء وماراودته عليه قبله من الفحشاء - بعصمة منا تحول دون تأثير دواعيها الطبيعية في نفسه ، حتى لا يخرج من جماعة المحسنين إلى جماعة الظالمين الذين ذمهم وشهد هو في رده عليها بأنهم لا يقلعون ، وقال : لنصرف عنه السوء والفحشاء ، ولم يقل لنصرفه عن السوء والفحشاء ، لأنه لم يعزم عليهما بل لم يتوجه إليهما فيصرف عنهما .

(إنه من عبادنا المخلصين) أي إنه من جماعة المخلصين وهم آباؤه الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب وقال فيهم « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاَهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ .

(واستبقا الباب) أى تسابقا إلى الباب ففر يوسف من أمامها هاربا إليه طالبا النجاة منها مرجحا الفرار على الدفاع الذى لا تعرف عاقبته ، وتبعته هى تبغى إرجاءه حتى لا يفلت من يدها ، وهى لا تدرى إذا هو خرج إلى أين يذهب ، ولأماذا يقول ولا ما يفعل ؟ لكنها أدركته .

(وقدت قيصه من دبر) أى جذبته من رذائه وشدت قيصه فانهذأ .

(وألفيا سيدها لدى الباب) أى وجدا زوجها عندالباب ، وقد كان النساء فى مصر يلقبن الزوج بالسيد ، ولم يقل سيدها لأن استرقاق يوسف غير شرعى ، وهذا كلام ربه العليم بأمره ، لا كلام من استرقه .

(قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم) أى وحينئذ خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متصلة من جرمها وقاذفة يوسف : ماجزاء من أراد بأهلك شيئا يسوءك صغيرا كان أو كبيرا إلا سجن يعاقب به ، أو عذاب مؤلم موجه يؤدبه ويلزمه الطاعة .

قال الرازى : وفى هذا القول ضروب من الحيل .

(١) إيها من زوجها أن يوسف قد اعتدى عليها بما يسوءها ويسوءه .

(٢) إنها لم تصرح بجرمه حتى لا يشتد غضبه ويقسو فى عقابه . كأن يبيعه أو يقصيه عن الدار ، وذلك غير ما تريد .

(٣) إنها هدوت يوسف وأنذرته بما يعلم منه أن أمره بيدها ليخضع لها ويطيعها .

(٤) إنها قالت . إلا أن يسجن والمراد منه أن يسجن يوما أو أقل على سبيل

التخويف فحسب ، أما الحبس الدائم فكان يقال فيه : (يجب أن يجعل من المسجونين) ألا ترى أن فرعون حين هدد موسى قال (لَأَنْ آتَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) .

وجملة القول في هذا — أن يوسف عليه السلام كان قوى الإرادة لا يمكن غيره أن يحتال عليه ويصرفه عن رأيه ويجعله خاضعا له ، ومن ثم لم تستطع امرأة العزيز أن تحوّل إرادته إلى ما تريد بمرادتها ، ولا عجب في ذلك فهو في ورائته الفطرية والمكتسبة ومقام النبوة عن آبائه الأكرمين ، وما اختصه به ربه من تربيته والعناية به ، وما شهد له به من العرفان والإحسان والاصطفاء ، وما صرف عنه من دواعي السوء والفحشاء — في مكان مكين وحرز حصين من أن تتطلع نفسه إلى اجتراح السيئات ، وارتكاب المنكرات ، فكل ماصوروه به من الصور البشعة الدالة على الميل إلى الفجور إنما هو من فعل زنادقة اليهود ، ليؤسبوا على المسلمين دينهم ، ويشوهوا به تفسير كلام ربهم ولا يفرّتك إسناد تلك الروايات إلى بعض الصحابة والتابعين فهي موضوعة عليهم ، ولا ينبغي أن يعتدّ بها ، لأن نصوص الدين تنبئها ، إلى أنه من علم الغيب في قصة لم يعلم الله رسوله غير ما قصه عليه في هذه السورة ، وكفى بهذا دلالة على وضعها .

تحقيق زوجها وحكم قريتها وظهور براءة يوسف

قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في الآيات السابقة مخادعتها ليوسف عن نفسه وتخليقها الأبواب وهر به منها إلى الباب وجذبها لقميصه ورؤية سيدها لذلك الحادث واتهامها ليوسف

بإرادة السوء منها - ذكر هنا تبرئة يوسف لنفسه وحكم قريبها في القضية بعد بحث وتشاور بين زوجها وأهلها ، ثم علم الزوج ببراءة يوسف وثبوت خطيئتها .

الإيضاح

(قال هي راودتني عن نفسي) أي هي طلبتني فامتنعتُ وفررت كما ترى ، وقد قال هذه المقالة وهتك سترها خوفاً على النفس والعرض ، ولاشك أن هذه حال تحتاج إلى بحث وتشاور وأخذ ورداً لم يبينه لنا الكتاب الكريم وإن كان لا بد أن يحصل حتماً كما هو مقتضى العادة والعقل ، لأن المقصد من القصة بيان نزاهة يوسف وفضائله لتكون عبرة لغيره .

وكانت الأمارات دالة على صدق يوسف لوجه :

(١) إن يوسف كان مولى لها ، وفي مجرى العادة أن المولى لا يجرؤ أن يتسلط على سيده ويتشدد إلى مثل هذا .

(٢) إنهم رأوا يوسف يعدو عدواً شديداً ليخرج ، ومن يطلب امرأة لا يخرج على هذا النحو .

(٣) إنهم رأوا الزينة قد بدت على وجه المرأة ، ولم يكن لها من أثر على وجه يوسف .

(٤) إنهم لم يشاهدوا من أخلاق يوسف في تلك الحقب الطويلة ما يؤيد مثل هذه التهمة أو يقوى الظن عليه بأنه هو الطالب لا الهارب .

وقد أظهر الله لبراهته ما يقوى تلك الدلائل الكثيرة التي تظاهرت على أن بدء الفتنة كانت منها لآمنه وأنها هي المذنبه لاهو وذلك ما أشار إليه بقوله :

(وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبيل فصدقت وهو من الكاذبين .
 وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) أي وحكم ابن عم لها مستدلاً بما ذكر ، وكان عاقلاً حصيف الرأي فقال : قد سمعنا جلبةً وضوضاءً ورأينا

شق القميص إلا أنا لا ندرى أيُّكمَا كان قدام صاحبه ، فإن كان شق القميص من قدام فصدقت في دعواها أنه أراد بها سوءا ، إذ الذى يقبله العقل أنه لما وثب عليها أخذت بتلابيبه فجاذبها فانقدَّ قميصه وهما يتنازعان ويتصارعان ، وهو من الكاذبين في دعواه أنها راودته فامتنع وفرَّ هاربا فقتبعته وجذبتة تريد إرجاعه ، وإن كان قميصه قدَّ من الخلف فكذبت في دعواها أنه هجم عليها يريد ضربها ، وهو من الصادقين في قوله : أنه فرَّ هاربا منها .

روى أن هذا الشاهد كان صبيا في المهدي وأيدوه بما نقل عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جُريج ، وعيسى ابن مريم » وما روى عن أبي هريرة قال « عيسى بن مريم وصاحب يوسف وصاحب جريج تكلموا في المهدي » وهذا موقوف لا يصلح الاحتجاج به ، والأول قد ضعفه رجال الحديث ، إلا أنه لو نطق الطفل بهذا لكان قوله كافيا في تفنيدها دون حاجة إلى الاستدلال بتمزيق القميص ، لأنه من الدلائل الظنية ، وكلامه في المهدي من الدلائل اليقينية ، وأيضا لو كان كذلك لما كان هناك داع إلى قوله : من أهلها الذى ينفي التحامل عليها ويمنع إرادة الضربها ، وأيضا فإن لفظ (الشاهد) لا يقع عرفا إلا على من تقدمت معرفته لما يشهد وإحاطته به .

(فلما رأى قميصه قدَّ من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) أى فلما نظر إلى القميص ورأى الشق من الخلف أيقن بصدق قوله واعتقد كذبها ، وقال إن هذا محاولة للتوصل من جرْمها بآتهامها له بضروب الكيد المعروفة عن النساء ، فهو سنة عامة فيهن ، فهن يجتهدن في التبرى من خطاياهن ما وجدن إلى ذلك سبيلا ، وكيد النساء عظيم لا قبيل للرجال به ، ولا يفطنون لحيلهن حتى يدفعوها قدر المستطاع ، ولا شك أن هذه شهادة من قريب لها لا يتهم بالتحامل عليها ولا بظلمها وتجريحها برميها بما هى منه برآة .

(يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين) أى يا يوسف

أعرض عن ذكر هذا السكيد الذي حصل ولا تتحدث به ، كي لا ينتشر أمره بين الناس ولا تحف من تهديدها وكيدها لك ، وأنت أيتها المرأة توبى إلى ربك ، واستغفري لذنبك ، إنك كنت من زمرة المجرمين الذين يتعمدون ارتكاب الخطايا ويحترحون السيئات وهم مصرّون عليها .

حديث الفسوة في المدينة ومكر امرأة العزيز بهن

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنَهُنَّ فَتَاهَا حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)

تفسير المفردات

فتاها : عبدها ورقيقها ، والشغاف : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه ، كما يقال : كبדתه إذا أصبت كبده ، والضلال : الحيدة عن طريق

الرشد وسنن العقل ، بمكرهن ، أى بقولهن ، وسمى ذلك مكرًا لأنهن كن يردن إغضابها كى تعرّض عليهن يوسف لتبدي عذرها فيقرن بمشاهدته ، وأعدت : أعدت هيات ، والمتكأ : ما يجلس عليه من كراسى وأرائك ، وأكبرنه : أعظمه ودهشن من جماله الرائع ، وقطنن أيديهن : أى جرحنها ، حاش لله أى تنزيها لله أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر ، واستعصم : استمسك بعروة عصمته التى ورثها عن نثوا عليها ، الصاغرين : أى الأذلة المقهورين ، وأصبُ إليهن : أمل إلى موافقتهم على أهوائهن ، والجاهلين : أى السفهاء الذين يرتكبون القبائح ، فاستجاب له : أى أجاب دعاءه ، وبدا : ظهر ، والآيات هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام ، والحين : وقت من الزمن غير محدود .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تحقيق زوجها فى الحادث وحكم أحد أقاربها بما رأى ، وقد استبان منه براءة يوسف ، ذكر هنا أن الأمر قد استفاض فى بيوت نساء الوزراء والكبراء فأحبين أن يمكرن بها ، لترين هذا الشاب الذى فتنها جماله ، وأذلها عفافه وكاله ، حتى راودته عن نفسه وهو فتاها ، ودعته إلى نفسها فردها وأباها خشية لله وحفظاً لأمانة السيد الحسن إليه أن يخونه فى أعز شىء لديه - عله بعد هذا يصبو إليهن ويمجذبه جاهلن ويكون له فيهن رأى غير مارآه فيها ، فإنه قد ألف جاهلها قبل أن يبلغ الأشد ، وكان ينظر إليها نظرة العبد إلى سيدته ، أو الولد إلى والدته .

الايضاح

(وقال نسوة فى المدينة) لم يشر الكتاب الكريم إلى عددن ولا إلى صفاتهن ، لأن العبرة ليست فى حاجة إلى ذلك ، والذى يقتضيه العرف ومجرى العادة أنه عمل

جماعة قليلة من بيوتات كبار الدولة يعهد منهن في العرف أن يأتمن ويتفقدن. على الاشتراك في مثل هذا المسكر، إذ نساء البيوت الدنيا أو الوسطى لاتتجه أنظارهن إلى الإنكار على امرأة العزيز كبير وزراء الدولة، ولا إلى مشاركتها في سلب عشيقها ولا إلى التمتع بجماله الساحر، وحادث مثل هذا جدير بأن ينتقل من بيت إلى بيت بواسطة الخدم، ويكون الشغل الشاغل للنساء في مجالسهن الخاصة وسمرنهن في البيوت، وخلاصته :

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) وهذا كلام يقال للإنكار والتعجب من حصوله لوجوه عدة :

- (١) إنها امرأة العزيز الأكبر في الدولة، ولها المنزلة السامية بين نساء العظماء .
 - (٢) إن الذي تراوده عن نفسه هو فتاها ورقيقها .
 - (٣) إنها قد بلغ بها الأمر أن جادت بعفتها فكانت هي المرادة والطالبة لالمرادة المطلوبة .
 - (٤) إنها وقد شاع ذكرها في المدينة لم ينثن عزمها عما تريد، بل لاتزال مُجِدَّة في نيل مرغوبها، والحصول على مطلوبها، كما يفيد ذلك قولهن (تراود) وهو فعل يدل على الاستمرار في الطلب .
- ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :
- (قد شغفها حبا) أى قد شق حبه شغاف قلبها أى غلافه المحيط به وغاص في سويدائه، فلك عليها أمرها، فلا تبالي بما يكون من عاقبة تهتكها، ولا بما يصير إليه حالها .

ثم زادوا ذلك تأكيذا بقولهم :

(إنا لنراها في ضلال مبين) أى إنا لنعلم أنها غائصة في مهاوى الضلالة البينة البعيدة عن طريق الهدى والرشاد، ولم يكن قولهن هذا إنكارا للمنكر، ولا كرها للردية، ولا نصرا للفضيلة، بل قلنه مكررا وحيلة، ليصل الحديث إليها، فيحملها ذلك

على دعوتهن ، والرؤية بأبصارهن ما يكون فيه معذرة لها فيما فعلت . وذلك منهن مكر لارأى ، وقد وصلن إلى ماأردن كما قال تعالى :

(فلما سمعت بمكرهن) أى فلما سمعت مقاتلتهن التى يردن بها إغضابها حتى تريهن يوسف إبداء لمعذرتها فينلن مايبغين من رؤيته ، وقد كان من المتوقع أن تسمع ذلك ، لما اعتيد بين الخدم من التواصل والتزاور ، وهن ماقلنه إلا لتسمعه ، فإن لم يتم لهن ماأردن احتلن فى إيصاله ، وقد كان ماأردن كما قال :

(أرسلت إليهن وأعدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً) أى مكرت بهن كما مكرن بها ، ودعتهن إلى الطعام فى دارها ، وهيات لهن مايتكئن عليه من كراسى وأرائك كما هو المعروف فى بيوت العطاء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ، لتقطع بها ماتاً كل من لحم وفاكهة .

(وقالت اخرج عليهن) أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها محجوبا عنهن ، وقد تعدت إتماما للحيلة والمكر بهن أن يفجأهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه علما منها بما يكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ماأرادت كما يشير إلى ذلك قوله :

(فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن) أى فخرج عليهن فلما رأينه أعظمنه ودهشن لذلك الجمال البارع وذهلن فقطعن أيديهن بدلا من تقطيع ماياكلن ذهولا عما يعملن أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار ، حتى لم يشعرن بما عملن ، ولا ألين لما نالهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم فيقولون كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدي حتى كدت أقطعها .

(وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) أى وقلن هذا على نهج التمجب والتنزيه لله تعالى أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تحلب الأبواب وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطهن أترُنجاً (ثمر من نوع الليمون الحامض كبير مستطيل يؤكل بعد إزالة قشرته) وعسلا فكن يحززن بالسكين ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له : اخرج عليهن خرج ، فلما رأينه أعظمته وتهيمن به حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الأترنج ولا يعقلن ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الأترنج ، قد ذهبت عقولهن مما رأين وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، أى ما هكذا يكون البشر ، ما هذا إلا ملك كريم .

(قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر مارأيتن بأعينكن ، وماأ كبرتى فى أنفسكن ، ومافماتن بأيديكن ، وماقلتن بألسنتكن ، فذلكن هو الذى لمتننى فيه ، وأسرفتن فى لومى وتعنيفى ، وقاتن فى قاتن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخادم الصعلوك الذى شفف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو ملك تجلّى فى صورة إنسان ، فماذا أنتن قائلات فى أمرى ، وهو المالك لسمى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا ، إنسيا لاجنيا ، وجسدا لاملسكا روحانيا ، فأتصبأه بكل ماأملك من كلام عذب ، فلا بصبو إلىّ ، ولا يُظهِر نحوى عظفا ، ولا يرفع إلىّ طرفا

(واقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى واقد راودته عن نفسه فامتنع عما أرادته منه ، واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عن نشتوا عليها ، ولا عجب فإن نظره إلى الله لم يدع فى قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شففتها حبا .

(ولئن لم يفعل ما أمره ليسجننّ وليكونا من الصاغرين) أى ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلا كما لم يفعله ماضيا : ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ، ولا يعصبنى فى أمر ؛ وسيمعاقبه بما أريد ، ويلقيه فى غيابات السجون ، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه وجعله كوله .

وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أولا ، فهناك أندرته بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وألطفها كحبس

في حجرة الدار، أو لطمه على خديه تزيل منها الاحمرار، وهنا أذرتة بسجن مؤكد وذل وصغار تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار .

وفي هذا التهديد من ثقتها بسلطانها على زوجها مع علمه بأمرها واستعظامه لكيدها، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ويثبت لديه عدم غيرته عليها كما هو الحال لدى كثير من العطاء المترفين العاجزين عن إحصان أزواجهن والمحرومين من نعمة الأولاد منهم .

وربما تكون مبالغتها في تهديده بمحض من هؤلاء النسوة لما في قلبها منه من غُل وجوى بظهور كذبها وصدقه، وتصميمه على عصيان أمرها، ولتُظهِر ليوسف أنها ليست في أمرها على خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل، ولينصحنه في موافقتها ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها .

يا الله! إن هذا الموقف يهد الجبال الراسيات، وتدير لاقبل لأشد العزائم على احتمالها، فامرأة ماكرة هتكت سترها، وكأشفت نسوة بلدها بما تُسر وتعلن من أمرها، ونسوة تواطن معها على الكيد له كما كادت له من قبل بمراودته عن نفسه، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء، وإبعاد تلك اللاأواء، إلا بمعونته من ربه، وحفظه من نزغات الشيطان وكلاءة الرحمن، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جفانه :

(قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) أى قال ربى أنت العليم بالسر والنجوى، والقدير على كشف تلك البلوى : إن السجن الذى هُددت به والملكت فى بيته المجرمين على شظف العيش ورقة الحال - أحب إلى نفسى مما يدعو إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقرهبن عن قربك .

وفى قوله مما يدعونني إليه إيماء إلى أنهم خوفه مخالفتها، وزين له مطاوعتها قفلن له : أطمع مولاتك وأنلها ما تهوى، لتكفى شرها، وتأمين عقوبتها .

(وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن) أى وإن لم تبعد عني شرك كيدهن وتُذبتني على ماأنا عليه من العصمة ، أمل إلى موافقتهم على أهوائهم وأقع في شبك صيدهن وأرتع في حماة غوايتهن ، وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله ، في فزعهم إلى مولاهم لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لاطاقة لهم إلا بمعونته سبحانه مبالغة في استدعاء لطفه وعظيم كرمه ومنه .

(وأكن من الجاهلين) أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات واجتراح السيئات ، فمن يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات لامهزب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب والسنن العادية .

وفى هذا إيماء إلى أنه ماصبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ماعوده من كشف سوء عنه فى قوله « كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ » .

(فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن) أى فأجاب له ربه دعاءه الذى تضمنه قوله : وإلا تصرف عني كيدهن الخ فصرف عنه كيدهن وعصمه من الجهل والسفه باتباع أهوائهم .

(إنه هو السميع العليم) أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم وبما يصلح أحوالهم .

وفى هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته فى جميع أطواره وشئونهم ، ورباه أكل تربية وماخلآه ونفسه فى أهون أموره .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين) أى ثم ظهر للعزير وامراته ومن يهمه أمرها كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها - من الرأى مالم يكن

ظاهرا لهم من قبل - بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم وشهدوه بأعينهم ، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا في أخلاقه وعفته واحتقاره للشهوات واللذات التي يتمتع بها سكان القصور ، وفي إيمانه بأن ربه لن يتركه بل يكلؤه بعين عنايته ، ويحرسه بوافر رعايته ، وقد استبان لهم ذلك من وجوه :

(١) إن افتنان سيدته في مرادته وجذبها خلسات نظره لم تؤثر في ميل قلبه إليها ، بل ظل مُعْرِضا عنها متجاهلا لها حتى إذا ما صارحته بما تريد استعاذ بربه ورب آباؤه ، وعيَّرها بالخيانة لزوجها .

(٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به هم بمقاومتها والبطش بها ، ولم يمنعها إلا مارأى في دخيلة نفسه من برهان ربه الذي يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء .

(٣) إنها حين اتهمته بالتمدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة في اتهامها إياه وهو صادق فيما ادعاه من مرادتها إياه عن نفسه بدلالة القميص على ذلك .

كل هذا أثبت لهم أن بقاءه في هذه الدار بين ربها وصديقاتها مثار فتنة لاتدرك غايتها ، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه لإخفاء ذكره وكف أسنة الناس عنها في أمره ، وأقسموا بسجنه حتى حين دون نقيذ بزمن معين ليروا . إذا يكون فيه من تأثير السجن وحديث الناس عنه .

وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الفيرة عليها ، فهو يجرى وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك مارأى من الآيات وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الهوان والصغار به حين أيست من طاعته وطمعت في أن يذلل السجن لأمرها ويقف به عند مشيئتها .

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ
 الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ، نَبِّئْنَا
 بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا
 نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ، ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي
 تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ
 مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
 شَيْءٍ ، ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَشْكُرُونَ (٣٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مكر النسوة بامرأة العزيز لترهبين يوسف ، ثم مكر امرأة
 العزيز بهن حتى قطعن أيديهن وقلبن في يوسف ماقلن من وصف جماله ، ثم إظهار
 امرأة العزيز المعذرة لنفسها فيما فعلت ، وعزمها على سجنه إن لم يكن مطواعا لها ،
 ثم حماية الله له من كيدها بعد دعائه إياه ، ثم تدبير مؤامرة بين العزيز وامراته وأهلها
 على إدخاله السجن مع كل مارأوا من الآيات حتى ينسى الناس هذا الحديث وتسكن
 تلك الثائرة في المدينة .

ذكر هنا تنفيذهم لما عزموا عليه من إدخالهم إياه السجن ، وما كان من لطف الله به إذ
 أنه من علم تعبير الرؤيا ما يستطيع به أن يعبر لكل حامل عما يراه ، ويخبر كل أحد
 عما يسأله عنه مما لم يكن حاضرا لديه وماسياتى له من طعام وشراب ونحو ذلك ،
 ثم ذكر قول يوسف إن هذا كله نعمة من نعم الإيمان بالله عليه وعلى آبائه إبراهيم
 وإسحاق ويعقوب .

الايضاح

(ودخل معه السجن فتيان) أى فسجنوه ودخل معه فتيان مملوكان من غلمان ملك مصر أحدهما خبازه والآخر ساقيه - نحيانة نسبت إليهما كانت ستودى بحياته ، وبعد أن استقر بيوسف المقام فى السجن - سأله من فيه عن عمله فقال إني أعبى الرؤى ، فقال أحد الفتيين لصاحبه تعال فلنجرّبه وكان من شأنهما معه ما قصه الله علينا بقوله (قال أحدهما إني أرانى أعصر خمراً) أى قال صاحب شرابه : إني رأيت فى المنام أنى أعصر خمرا أى عنبا ليكون خمرا ، إذ الخمر لا يُعَصَّر ، وقيل إن عرب غسان وعمّان يسمون العنب خمرا . روى أنه قال رأيت حُبْلَةً من كرم حسنة لها ثلاثة أغصان فيها عناقيد فكنت أعصرها وأسقى الملك .

(وقال الآخر إني أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه) أى وقال الآخر وهو الخباز ، وقد روى أنه قال : رأيت أنى أخرج من مطبخ الملك وعلى رأسى ثلاث سلال فيها خبز والطير تأكل من أعلاه .

(نبئنا بتأويله) أى قال كل واحد منهما : نبئنى بتأويل ما رأيت أى بتفسيره الذى يثول إليه فى الخارج إذا كان حقاً لأضغاث أحلام .

ثم بينا له ثقتهما به فقالا :

(إنا نراك من المحسنين) أى الذين يحسنون تأويل الرؤيا ، وماقالا هذا إلا بعد أن رأيا من سعة علمه وحسن سيرته مع أهل السجن ما جعله كعبة قصادهم وقبلة استفتائهم .

وقد يكون المعنى : إنا نراك من الذين يحسنون بمقتضى غريزتهم ، ويريدون الخير للناس وإن لم يكن لهم فيه منفعة خاصة لهم .

وقد وجد يوسف عليه السلام من ثقة السائلين بعلمه وفضله واهتمامهما بما يسمعان من تأويله لرؤياهما ما جعله يحدّثهما بما هو المهم عنده وهو دعوتهما وجميع من فى السجن

إلى توحيد الله ، ولكنه جعل في صدر كلامه ما يطمئنهم على الثقة بصدقه ، وذلك بإظهار مامن الله به عليه من تعليمه ماشاء من أمور الغيب ، وأقرب ذلك إلى اقتناعهم ما يختص بمعيشتهم ، ومن ثم جعله بدء الحديث معهم كما حكى سبحانه عنه .

(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) أى قال لهما لا يأتيكما طعام إلا أخبرتكما به وهو عند أهله وبما يريدون من إرساله وما ينتهى إليه بعد وصوله إليكما روى أن رجال الدولة كانوا يرسلون إلى الجرمن طعاما مسموما يقتلونهم به ، وأن يوسف أراد هذا من كلامه .

وفي ذلك إيماء إلى أنه أوتى علم الغيب ، وهذا يجرى مجرى قول عيسى عليه السلام : « وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ » .

ومن هذا يعلم أن وحى الرسالة جاءه وهو في السجن ، وبذلك تحقق قوله : « رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » كما أن وحى الإلهام جاءه حين إلقاءه في غيابة الحب كما تقدم ذكره ، وكأنه سبحانه جعل في كل محنة منحة ، وفي كل مآظمه أنه بلاء نعمة .

(ذلكما علمنى ربى) أى ذلكما الذى أنبأتكما به بعض ما علمنى ربى بوحي منه إلى لا بكهانة ولا عرافة ولا ما يشبه ذلك من تعليم بشرى يلبس به الحق بالباطل ويستبه فيه الصواب بالخطأ .

(إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) القوم هنا الكنعانيون وغيرهم من سكان أرض الميعاد ، والمصريون الذين هو بينهم فقد كانوا يعبدون آلهة منها الشمس ويسمونها (رع) ومنها مجلهم (أيبس) ومنها فراعهم ، وكان التوحيد خاصا بمجكاهم وعلماهم ، ومعنى تركها أنه ترك دخولها واتباع أهلها من عبدة الأوثان على كثرة أهلها ، وفي ذلك لفت لأنظارهما لأن يتركا تلك الملة التى هم عليها .

والعنى - إني برئت من ملة من لا يصدق بالله ولا يقر بوحدانيته وأنه خالق السموات والأرض وما بينهما .

(وهم بالآخرة هم كافرون) أى وهم يكفرون بالآخرة والحساب والجزاء على الوجه الذى دعا إليه الأنبياء ، إذ أنهم كانوا يصورون حياة الآخرة على صور مبتدعة ، منها أن فراعنتهم يعودون إلى الحياة الآخرة بأجسادهم المحنطة ويرجع إليهم الحكم والسلطان كما كانوا فى الدنيا ، ومن ثم كانوا يضعون معهم فى مقابرهم جواهرهم وحليهم ، ويبنون الأهرام لحفظ جثثهم ومانعهم ، ولهم معتقدات أخرى فى تلك الحياة لاتشاكل ماجاء عنها على ألسنة الرسل عليهم السلام .

(واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) أى واتبعت ملة آبائى الذين دَعَوْا إلى التوحيد الخالص وهم إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وفى ذكر ذلك ترغيب لصاحبيه فى الإيمان والتوحيد وتغيير لهما عما هما فيه من الشرك والضلال .

ثم بين أساس الملة التى ورثها عن أولئك الآباء الكرام فكانت يقينا له بقوله :
(ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء) أى لا ينبغى لنا معشر الأنبياء أن نشرك بالله شيئا فنتخذة رباً مدبراً معه ولا إلهاً معبوداً من الملائكة أو البشر كالفراعنة ، فضلا عما دونهما من البقر كالعجل أبيض أو من الشمس والقمر ، أو ما يتخذ من التماثيل والصور لهذه الآلهة .

(ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) أى عدم الإشراك من فضل الله علينا ، إذ هدانا إلى معرفته وتوحيده فى ربوبيته وألوهيته ، بوحيه وآياته فى الأنفس والآفاق ، وعلى الناس بإرسالنا إليهم ، ننشر فيهم الدعوة ، ونقيم عليهم الحجة ، فنهديهم سبيل الرشاد ، ونبين لهم محجة الصواب ، ونبعدهم عن طرق الغواية والضلال .

(ولكن أكثر الناس لا يشكرون) نعم الله عليهم ، فيشركون به أرباباً وآلهة من خلقه ، يذلون أنفسهم بعبادتهم ، وهم مخلوقون لله مثلهم أو أدنى منهم .

يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩)
 مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ، أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ
 الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)

المعنى الجملى

بعد أن أبطل يوسف عليه السلام ما هما عليه من الشرك فيما سلف ، وذكر أنه قد اتبع ملة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب ، وبين أن هذا فضل من الله ومنة عليهم وعلى الناس ، وكثير من الناس لا يشكرون الخالق لهذه النعمة فيعبدوه وحده دون أن يشركوا به أحدا - دعاها هنا إلى التوحيد الخالص وأيده بالبرهان الذى لا يجد العقل محيصا من التسليم به والإقرار بصحته فقال :

الإيضاح

(يا صاحبى السجن) أى يا صاحبى فى السجن ، وناداهما بعنوان الصحبة فى هذه الدار التى هى دار الأشجان وموضع الهموم والأحزان، وفيها تصفو المودة وتخلص النصيحة ليضعفياً إلى مقاله ، ويقبلا على استماع ما يئلبقى إليهما به ، فالأذان حينئذ مرهفة ، والقلوب قد انصرفت عن الدنيا ولذاتها ، وتفرغت لعالم آخر غير ما يشغل الناس من زبرج هذه الحياة وزخرفها .

(أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) هذا استفهام لتقرير ما يذكر بعده وتوكيده ، والمراد بالتفرق التفرق فى الذوات والصفات المعنوية التى يفتونهم بها ، والصفات الحسية التى يصورها لهم بها الكهنة والرؤساء من رسوم منقوشة ، وتماثيل منصوبة ، فى المعابد والهياكل ، والقهار : الغالب على أمره الذى لا يغلبه أحد .

والعنى - أرباب كثيرون هذا شأنهم فى التفرق والانقسام ، وما يقتضيه ذلك من التنازع والاختلاف فى الأعمال والتدبير الذى يفسد النظام - خير لكما وغيركما فيما تطلبون من كشف الضر وجلب النفع وكل ما يحتاجون فيه إلى العونة من عالم الغيب ، أم الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا يفاضع ولا يعارض فى تصرفه وتدييره ، وله القدرة التامة والإرادة العامة ، وهو المسخر لجميع القوى والنواميس الظاهرة التى تقوم بها نظم العوالم السماوية والأرضية من نور وهواء وماء ، والغائبة عنا كالملائكة والشياطين مما كان الجهل بحقيقتها هو سبب عبادتها والقول بربوبيتها ؟ ولا شك أن الجواب عن هذا مما لا يختلف فيه عاقل ، فلا خير فى تفرق المعبودات التى لا تستطيع ضراً فى الأرض والسماوات .

ثم بين لهما أن ما يعبدونه ويسمونه آلهة إنما هى جعلٌ منهم ، وتسمية من تلقاها أنفسهم ، تلقاها خلف عن سلف . ليس لها مستند من العقل والوحي السماوى فقال : (ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) أى ماتعبدون من دون الواحد القهار إلا أسماء لمسميات وضعتموها أتم وأباؤكم من قبلكم ونحلتموها صفات الربوبية وأعمالها ، وماهى بأرباب تخلق وترزق ، وتضر وتنفع ، ما أنزل الله حجة وبرهاناً على أحد من رسله بتسميتها أرباباً ، حتى يقال إنكم تتبعونها تعبداله وحده وطاعة لرسله .

والخلاصة - إنها تسمية لا دليل عليها من نقل سماوى فتكون أصلاً من أصول الإيمان ، ولا دليل عليها من عقل فتكون من نتاج الحجة والبرهان .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم الحق فى الربوبية والعبادة إلا لله وحده يوحى لمن اصطفاه من رسله ولا يمكن بشراً أن يحكم فيه بهواه ورأيه ، ولا يعقله واستدلالة ، ولا يجتهداه واستحسانه ، وهذه قاعدة اتفقت عليها كل الأديان ، دون اختلاف فى الأمكنة والأزمان .

ثم بين ما حكم به الله فقال :

(أمر ألا تعبدوا إلا إياه) أى أمر ألا تعبدوا غيره ولا تدعوا سواه ، فله وحده

اركعوا واسجدوا ، وإليه وحده توجهوا حنفاء غير مشركين به شيئا من ملك من الملائكة ولا ملك من الملوك الحاكمين ، ولا شمس ولا قمر ولا نجم ولا شجر ، ولا حيوان كالعجل أبيض لدى المصريين .

فالؤمن الصادق الإيمان لا يذبل ولا يخبزى لأحد غير الله مما خلق ، بدعاء ولا استغاثة ولا طلب فرج من ضيق ، لإيمانه بأنه هو الرب المدبر لكل شيء ، وأن كل ما سواه فهو خاضع لسلطانه ، ولا يملك لنفسه ولا لغيره غير ما أعطاه من القوى ، فإليه وحده الملجأ في كل ما يعجز عنه الإنسان أو يجهله من الأسباب ، وإليه المصير في الجزاء على الأعمال يوم يقوم الحساب .

(ذلك الدين القيم) أى إن تخصيصه بالعبادة هو الدين الحق الذى لا عوج فيه ، والذى دعا إليه جميع الرسل ، ودلت عليه براهين العقل والنقل .

(واسكن أكثر الناس ليعلمون) أن ذلك هو الدين الحق الذى لا عوجاج فيه ، لا ماساروا عليه تبعا لآبائهم الوثنيين من الاعتقاد بأرباب متفرقين .

وقد حَقِّقَتْ هذه الحقيقة على كثير ممن يدعون اتباع القرآن ، فترام يتوجهون إلى غير الله من الأولياء والصلحاء إذا مسهم الضر ، ويدعونهم خاشعين متذللين ، ويسمونهم شفعاء ووسائل عند الله ، وما هذا إلا مثل فعل من قبلهم من المشركين ، فليس لهم من صفات الربوبية أدنى حظ ، ولا من صفات الألوهية أقل نصيب .

وبعد أن بين لها الحق في مسألة التوحيد وعبادة الله وحده شرع في إنبأها عما استنبأه عنه فقال :

يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُ كَمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ
فَيُصَلِّبُ فِتْنًا كُلُّ الطَّيْرِ مِنْ رَأْسِهِ ، قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا إِذِ كُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)

تأويل يوسف عليه السلام رؤيا صاحبي السجن ووصيته للناجى منهما

الايضاح

(ياصاحبي السجن أما أحدكما) وهو الساقى الذى رأى أنه يعصِر خمرا، ولم يعيِّنه ثقة بدلالة الحال ، ورعاية لحسن الصحبة .

(فيسقى ربه خمرا) أى فيسقى سيده ومالك رقبته . وقد روى أن يوسف قال له فى تعبير رؤياه : ما أحسن ما رأيت ، أما الكرمة فهى الملك وحسنها حسن حالك عنده ، وأما الأغصان الثلاثة فتلاثة أيام تمضى فى السجن ثم تخرج وتعود إلى عملاك . (وأما الآخر) وهو الذى رأى أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه .

(فيصلب فتأكل الطير من رأسه) أى الطير الكواسر كالحداة والرحمة ونحوهما روى أنه عليه السلام قال له : ما رأيت من السلال الثلاث ، فتلاثة أيام تمر ثم تُخْرَج فتُصَلَّب .

(قضى الأمر الذى فيه تستفتيان) الاستفتاء فى اللغة : السؤال عن المشكل المجهول والفتوى جوابه : أى إن الأمر الذى يهكمما ويشكل عليكما وتستفتيانى فيه قد بُتَّ فيه وانتهى حكمه .

وهذه الفتوى من يوسف عليه السلام زائدة على تعبير رؤياها داخله فى باب المكاشفة والإنباء عن الغيب ، قالها لها ليثقا بقوله ، ويعلم أنها إنما قالها بوحى من ربه ، وأن الملك قد حكم فى أمرها بما قاله .

(وقال للذى ظن أنه ناجٍ منهما) وهو الذى أول له رؤياه بأنه يسقى ربه خمرا ، وتأويلها يدل على نجاته دلالة ظنية لا قطعية ، وقد يكون هذا بناء على وحى فيكون

الظن بمعنى اليقين وهو كثير في القرآن الكريم كما قال : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » وقال : « إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةٍ » .

(اذكرني عند ربك) أى اذكرني لدى سيدك الملك بما رأيت منى وما سمعت وعلمت من أمرى ، علّه ينصفنى من ظلمنى ويخرجنى من ضائقة السجن ، ومما هو جدير أن يذكره به دعوته إياهم إلى التوحيد وتأويله للرؤيا ، وإنبأوهم بكل ما يأتيهم من طعام وشراب وغيرها قبل إتيانه وفتياه التى أفتى بها .

(فأنساه الشيطان ذكر ربه) أى فأنسى الشيطان ذلك الساقى الناجى تذكري إخبار ربه أى أن يذكر يوسف للملك .

(فلبث فى السجن بضع سنين) منسيا مظلوما ، والبضع من ثلاث إلى تسع ، وأكثر ما يطلق على السبع وعليه الأكثرون فى مدة سجن يوسف .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ
وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَفْتُونِ فِي رُؤْيَايَ إِنَّ
كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَايَ تَافَهُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
الْأَحْلَامِ بِمِثْلِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ
بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلْنَ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلِّي
أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ،
فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا

تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ
يُعَصِّرُونَ (٤٩)

تفسير المفردات

السمان : واحدها سمين وسمينة ، والعجاف : واحدها عجفاء أى هزيلة ضعيفة ،
والسنابل : واحدها سنبله وهى ما يكون فيها الحب ، واليابس من السنبيل : ما آن حصاده ،
وعبّرت الرؤيا وعبرتها (بالتحفيف والتشديد) فسرتها ببيان المعنى الحقيقى المراد من
المعنى المثالى كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى ، والأضغاث : واحدها ضِفْث
وهو الحزمة من النبات ، والأحلام واحده حلم (بضمّتين وبالتسكين للتحفيف) :
ما يرى فى النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التى تكون فى اليقظة ، وقد
يكون مهوشاً مضطرباً فهو يُشَبَّه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان
والحشائش التى لاتناسب بينها ، وادكر : تذكر (أصله اذتكر) ، والدأب : استمرار
الشيء على حال واحدة يقولون هو دأب بفعل كذا إذا استمر فى فعله ، فذروه : أى
أتركوه وادخروه . والشداد الصعاب التى تشتد على الناس . وتحصنون أى
تُحْرِزُونَ وتدخرون للبذر ، وأغاثه : أعانه ونجاه ، وغوَّث الرجل : قال : واغوثاه ،
واستغاث ربه : استنصره وسأله العوْث ، ويعصرون : أى مامن شأنه أن يعصّر
كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم ، والأشربة من القصب والنخيل والعنب .

المعنى الجملى

رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف عليه السلام لها

ذكر المؤرخون أن ملك مصر فى عهد يوسف كان من ملوك العرب الذين يسمون
بالرعاة (الهكسوس) وأنه قد رأى رؤيا يعجز السكينة والعلماء ورجال الدولة عن تأويلها ،

وقالوا أضغاث أحلام ، وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف في تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك وتعيينه وزيره .

الايضاح

(وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى إنى رأيت فيما يرى النائم رؤيا جليلة كأنى أراها الآن ، سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وسبع بقرات عجاف فابتلعت العجاف السمان ، ورأيت سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعا أخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها فجمع الكهنة والعلماء وقال : (يا أيها الملاء أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون) أى عبروها لى وبيّنوا حكا وماتشول إليه ، إن كنتم تعبرون الرؤى وتبينون المعنى الحقيقى المراد من المعنى المثالى ، فيكون حالكم حال من يعبر النهر من ضفة إلى أخرى .

(قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أى قالوا هذه رؤيا من نوع أضغاث الأحلام : أى الأحلام المختلطة من خواطر وأخيلة يتصورها الدماغ فى النوم فلا تومىء إلى معنى معين مقصود ، وما نحن بأولى علم بتأويل مثل هذه الأحلام المضطربة ، بل نحن نعلم غيرها من الأحلام المفهومة المعقولة .

وقد يكون مرادهم نفى العلم بجنس الأحلام لأنها مما لا يعلم أو مما لا يكون له معنى تدل عليه تلك الصور المتخيلة فى النوم كما هو رأى الماديين الآن .

وقد كان حديث الملك فى رؤياه مع كهنته وعلمائه ورجال دولته مذكرا للذى نجا من الفتيين بيوسف وحسن تعبيره للرؤى بعد أن مضى على ذلك ردح من الزمان كما يشير إلى هذا ما بعده :

(وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) أى إنَّ عجز الملاء كان فرصة سانحة للذى نجا من الفتيين أن يخبر الملك بأن فى الحبس رجلا صالحا

علما لكثير الطاعة - خبيرا بقاويل الرؤى ، فإن أنت أذنت لى مضيت إليه وجئتك بالجواب (وكان ذلك الفتى تذكر بعد مدة من الزمن وصية يوسف له بأن يذكره عند سيده الملك فأنساه الشيطان ذلك) فأرسلوه إليه فجاءه فاستفتاه فيما عجزوا عنه وقال :

(يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) أى يا يوسف البالغ غاية الكمال بصدقك فى أقوالك وأفعالك وتأويل الأحاديث وتعبير الأحلام ، أفتنا فى ذلك المنام الذى رآه الملك ، وإنى لأرجو أن يحقق الله أملك بالخروج من السجن وانتفاع الملك وملئه بفضلك وعلمك ،

(قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أى قال يوسف للملك وملئه مبينا لهم ما يجب عليهم أن يعملوه لتلافى ماتدل عليه الرؤيا من الخطر على البلاد وأهلها قبل وقوع تأويلها ، من زراعة القمح سبع سنين متوالية بلا انقطاع ثم بادخار ما يحصد منه فى كل زرة فى سنبله على طريق تحفظه من السوس بتسرب الرطوبة إليه حتى يكون القمح لغذاء الناس والتبن للدواب حين الحاجة إليه ، إلا قليلا من ذلك تأكلونه فى كل سنة مع الاقتصاد والاكتفاء بما يسد الحاجة ويكفى دفع المخمصة ، وهذه السنون السبع هى تأويل البقرات السبع السمان . أما السنبلات الخضر فعلى حقيقتها فى كون كل سنبله تأويلا لزرع سنة .

(ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت لهن إلا قليلا مما تحصنون) أى ثم تأتى بعد ذلك سبع سنين كلهن جذب وقحط ، يأكل أهلها كل ما ادخرتم فى تلك السنين لأجلهم ، إلا قليلا مما تخزنون وتدخرون للبذر ، ونسبة الأكل إلى السنين هو ماجرت به عادتهم فيقولون أكلت هذه السنة كل شىء ولم تبق لنا خفا ولا حافرا ولا سبدا ولا لبدا : أى لاشعرا ولا صوفا .

فهذا تأويل البقرات السبع العجاف وأكلهن للسبع السمان ، وللسنبلات اليابسات.

(ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) أى ثم يعقبهم بعد تلك الشدائد عام فيه يغاث الناس : أى يغيثهم الله من تلك الشدة أتم إغاثة ويعينهم بجميع أنواع المعونة ، فتُغْلُ البلاد وتكثر المحصولات بجميع أنواعها ويعصرون مامن شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمن ونحوها من الفواكه .

وخلاصة ذلك — إن العام يكون عام خصب وإقبال ، ويكون للناس فيه ما يبعثون من النعمة والإتراف ، والإنباء بهذا العام زائد على تأويل الرؤيا ولم يعرفه يوسف على التخصيص والتفصيل إلا بوحي من الله عز وجل .

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَأَوْذُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ؟ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْذَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)

طلب الملك ليوسف وترثه في الإجابة

حتى يحقق حادثة النسوة

بعد أن رجع الرسول إلى الملك وملئه وأبلغهم ما قاله يوسف عليه السلام ، فهموا منه سعة علمه وحسن تدبيره لدى ذلك الخطاب الجليل الذي سيجل بالبلاد ، فطالب الملك رؤيته ليتحقق بنفسه صدق ما فهمه من كلامه ، إذ ليس الخبّر كأخبّر وليس السماع كالشاهدة ، وذلك هو الرأى والحزم .

الإيضاح

(وقال الملك ائتمنى به) كى أستمع كلامه وأعرف درجة عقله وأعلم تفضيل رأيه .
(فلما جاءه الرسول) وبلغه أمر الملك وطلب إليه إنفاذه .

(قال ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) البال : هو الأمر الذى يبحث عنه ويهتم به : أى ارجع إلى سيدك قبل شخوصى إليه ومثولى بين يديه ، وسله عن حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ليعرف حقيقة أمره ، إذ لأود أن آتبه وأنامتهم بقضية عوقبت من أجلها بالسجن وقد طال مكثى فيه دون تعرف الحقيقة ولا البحث فى صميم التهمة .

(إن ربى بكيدهن عليم) أى إنه تعالى هو العالم بمخفيات الأمور ، وهو الذى صرف عنى كيدهن فلم يمسنى منه سوء .

وقد دل هذا التريث والتهمل من يوسف عليه السلام عن إجابة طلب الملك له حتى تحقق براءته على جملة أمور :

(١) جميل صبره وحسن أناته ، ولا عجب فمثله من لقى الشدائد جدير به أن يكون صبورا حلما ، ولا سيما ممن ورث النبوة كإبراهيم كابر ، وقد ورد فى الصحيحين مرفوعا « ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » ، وفى رواية أحمد « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » .

(٢) عزة نفسه وصون كرامته ، إذ لم يرض أن تكون التهمة بالباطل عاقلة به ، فطلب إظهار براءته وعفته عن أن يُزَنَّ بريبة أو تحوم حول اسمه شائبة السوء .

(٣) إنه عَفَّ عن اتهام النسوة بالسوء والتصريح بالطعن عليهن حتى يتحقق الملك بنفسه حين ما يسألهن عن السبب فى تقطيع الأيدى ويعلم ذلك منهن حين الإجابة .

(٤) إنه لم يذكر سيدته معهن وهى السبب فى تلك الفتنة الشعواء وفاء لزوجها ورحمة بها ، وإنما اتهمها أولا دفاعا عن نفسه حين وقف موقف التهمة لدى سيدها وبعد أن طعنت فيه .

(قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) الخطب الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب إما لغرابته وإما لإنكاره ، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : « قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » وقوم موسى : « فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ » أى إن الرسول بعد أن أبلغ الملك قول يوسف : إنه لا يخرج من السجن استجابة لدعوته حتى يحقق قصة النسوة - جمعهن وسألهن : ماخطبكن الذي حملكن على مراودته عن نفسه: هل كان عن ميل منه إليكن ، وهل رأيتن منه مواتاة واستجابة بعدها ، وماذا كان السبب فى إلقائه فى السجن مع المجرمين .

(قلن حاش لله ماعلما عليه من سوء) أى معاذ الله . ماعلما عليه سوءا يشينه ويسوءه لا قليلا ولا كثيرا .

(قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق) حصحص : ظهر بغير أن كان خفيا أى إن الحق فى هذه القضية كان فى رأى من بلغهم - موزع التبعة بيننا معشر النسوة وبين يوسف ، لكل مناقصة بقدر ماعرض فيها من شبهة ، والآن قد ظهر الحق فى جانب واحد لإخفاء فيه ، وهن قد شهدن بما علمن شهادة نفي ، وهأنذا أشهد على نفسى شهادة إيجاب .

(أنا راودته عن نفسه) لأنه راودنى ، بل استعصم وأعرض عنى .

(وإنه لمن الصادقين) فى قوله حين افتريت عليه : هى راودتنى عن نفسى ، والذي دعاها إلى هذا الاعتراف مكافأة يوسف على ما فعله من رعاية حقها وتعظيم جانبها وإخفاء أمرها حيث قال : (مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن) ولم يعرض لشنها .

وفى هذا الاعتراف شهادة مريجة من امرأة العزيز ببراءة يوسف من كل الذنوب ، وطهارته من كل العيوب .

(ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) أى ذلك الاعتراف منى بالحق له ، والشهادة بالصدق الذى علمته منه ، ليعلم أنى لم أخنه بالغيب عنه منذ سجن إلى الآن ، فلم أزل

من أماتته ، أو أظعن في شرفه وعفته ، بل صرحت لأولئك النسوة بأنى راودته عن نفسه فاستعصم ، وهأنذا أقر بهذا أمام الملك ورجال دولته وهو غائب عنا .
 (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) أى لا ينفذه بل يبطله وتكون عاقبته الفضيحة والفساد ، ولقد كدنا له فصرف ربه عنه كيدنا ، وسجنناه فبرأه الله وفضح مكرنا ، حتى شهدنا على أنفسنا فى مثل هذا الحفل الرهيب والمقام المغيب ببراءته من كل العيوب ، وسلامته من كل سوء .

وعلى الجملة فالتحقيق أسفر عن أن يوسف كان مثل السكّال الإنسانى فى عفته ونزاهته لم يمسه سوء من فتنة أولئك النسوة ، وأن امرأة العزيز أقرت فى خاتمة المطاف بذنبها فى مجلس الملك إثارة للحق وإثباتا لبراءة يوسف عليه السلام .
 نسألك سبحانه الهداية والتوفيق ، وأن تسدد خطانا إلى أقوم طريق ، بنك وكرمك وجزيل معونتك ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

وصل ربنا على محمد وآله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
 وقد كان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة لثمان بقين من صفر من سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف هجرية .